الباب الأول

المقدمة

أ. خلفية البحث

الأدب كيان حي متجدد، يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمختلف القضايا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تموج بها حياة المجتمعات. وهو فوق ذلك يُحدث أثرًا خفيًا لكنه واسع المدى على عقول الأفراد وتوجهاتهم الفكرية. ومن أبرز الفروع الأدبية الحديثة التي بزغت في القرن العشرين فرع يُعرف بـ"الأدب ما بعد الكولونيالية"، وهو أدب نشأ في ظل تأثير النقد المسمى بـ"النقد ما بعد الكولونيالية". وقد اعتمد هذا النقد على استثمار الأدوات الأدبية التي كان الاستعمار يستخدمها لقهر الشعوب المستعمَرة، لكنه وظّفها لدراسة الآثار المباشرة وغير المباشرة للاستعمار على الأراضي التي خضعت له. وبذلك، أرسى هذا النقد دعائم الأدب ما بعد الكولونيالية بوصفه ميدانًا فكريًا وثقافيًا يعكس تجارب ما بعد الكولونيالية.[١]

يصعب تقديم تعريف دقيق وشامل لمصطلح "ما بعد الكولونيالية" بوجه عام، لأن هذا المصطلح يشمل مجالات متنوعة تمتد من النظرية والنقد الأدبي إلى الدراسات الاقتصادية والسياسية والحكم الكولونيالية والهوية والثقافة. ومع

[١] فاطمة هفشجاني, حاجي آباد. ليلا, و طاهره جالدره, "دراسة مقومات ما بعد الاستعمار في رواية الفراشة الزرقاء," مجلة آداب الكوفة, ٢ (٢٠٢٢): ٦٢-٨٤.

ذلك، من المؤكد أن القوى الكولونيالية أعادت تعريف المناطق التي استعمرتها بما يتوافق مع منظومات معرفتها وأهدافها الكولونيالية. لذلك، غالبًا ما يُصوَّر الإنسان المستعمر بصفات مثل كونه غير حديث، وغير ديمقراطي، وهمجي، وغير ذلك من السمات التي تُعتبر مخالفة للقيم الاجتماعية الغربية. وكان الهدف من هذه الصور تبرير الاستعمار واحتلال تلك الدول تحت ذرائع مثل التحديث، ونشر الصحة والتعليم.[٢]

تم ابتكار مفهوم "الشرق" كعكس لـ"الغرب" في الخطاب الكولونيالي، مما أدى إلى ظهور مصطلحات مثل التفوق والدونية، والانقسام بين الغرب والشرق، وبين العقلانية والتخلف. وقد خلفت الكولونيالية التي مارسها الحكام المستعمرون جروحًا عميقة وأثرًا في عقلية الدونية لدى المجتمعات المستعمَرة، حيث فقدت هذه المجتمعات أصالتها وثقافتها المحلية.[٣]

ظهرت نظرية ما بعد الكولونيالية في منتصف القرن العشرين بهدف تحليل كل ما أنتجته الثقافة الغربية بوصفه خطابًا متعمدًا، يحمل في طياته نزعة كولونيالية تجاه المجتمعات التي تقع خارج النظام الغربي. يركز النقد ما بعد

---

[٢] ميلاد درويشي وآخرون., دراسة ظاهرة الطرس ما بعد الاستعمار في رواية قطعة من أوروبا لرضوى عاسور," دراسات في السرانية تاعربية, ٤ (ديسمبر ١, ٢٠٢٢): ٥٣-٧٣.

[٣] ليالي بحرية" ,تمثيل التقليد(Mimicry) والتهجين(Hibridity) في رواية 'ليالي تركستان 'لنجيب الكيلاني (دراسة ما بعد الاستعمار بالمنظور هومي ك بهابا) "(جامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية,٢٠٢٢)

الكولونيالية على تأثير الاستعمار في هوية المجتمعات المستعمَرة، سواء أثناء فترة الاستعمار أو بعدها، كما يظهر ذلك في النصوص الأدبية. ويُعد الأدب ما بعد الكولونيالية، لا سيما في جنس الرواية، ساحةً لطرح قضايا الهوية والصراعات النفسية.[٤]

إن الشعوب التي تعاني من التسلط والظلم والقهر، كحال الشعب العربي عمومًا والشعب الفلسطيني خصوصًا، تقف أمام مجموعة من الخيارات. فإما أن تستسلم للانهيار النفسي الذي يظهر في الانطواء على الذات، والهروب إلى الماضي، وانطفاء شعلة الحياة في نفوسها، أو أن تسلك طريق التشبه بالظالم المستبد، فتمارس الظلم على الأضعف منها، متأقلمة مع واقعها المؤلم، مما يؤدي إلى التخلي عن التفكير في التغيير أو الثورة على الظلم. وعندما يرهن الإنسان منزله، وهو موطنه الثاني، ليحصل على لقمة العيش، فإن القيم والوطن ذاته يتحولان إلى رماد تذروه الرياح. أما خيار الثورة والتمرد، فإنه غالبًا ما يأتي في المرحلة الأخيرة، بعد أن تفشل تلك الخيارات الأخرى في تحقيق العدالة أو الخلاص من الظلم.[٥]

---

[٤] فرامرز ميرزاني وآخرون" ,فصام الهوية بين أنوثة قاهرة ورجولة مقهورة: قراءة ما بعد كولونيالية في رواية 'العطر الفرنسي' ألمير تاج السر ,"دراسات في اللغة العربية وآدابها ٢٠١٨, ٨٥–١٠٤.

[٥] نعيم عموري, محمود مهديزادة, و غسان كاظم" ,الأبعاد النفسية في رواية 'غبار ١٩١٨م 'لفتان المر ,"مجلة لارك, عدد ٤ (٢٠٢٢): ٤٧, االبعاد .

تظهر هذه العلاقة التبادلية والتكافلية بوضوح في العديد من أعمال الأدباء، حيث تأخذ طابعًا توجيهيًا وتصحيحيًا لمعالجة العديد من الآفات الاجتماعية، سواء تلك الدخيلة أو الموروثة عبر الأجيال. وفي الفن الروائي، تُصوَّر الحياة والعمل الإنساني بلغة أدبية خيالية مستوحاة من الواقع، لأن الأدب يُعَدُّ صورة فنية معبّرة، تحمل في طياتها قيمًا شعورية تنبض بالحياة، بما يتضمنه من عناصر قريبة من الواقع، بكل ما فيه من تناقضات وتحولات اجتماعية. فالرواية، وفق المناهج السياقية، تُعدّ ابنة المجتمع وابنة الواقع، حيث ينظر إلى الأدب على أنه انعكاس للواقع. هذه الرؤية تنطلق من الفلسفة الماركسية التي ترى أن البُنى الفوقية، مثل الأدب والقيم والأخلاق، ما هي إلا انعكاس للبُنى التحتية المتمثلة في علاقات الإنتاج.[٦]

الأمراض العقلية والنفسية موجودة منذ وجود الإنسان. في الماضي، كانت هذه الأمراض تُفسَّر بتفسيرات خرافية مرتبطة بالسحر والشعوذة، مما أدى إلى ممارسات بشعة مثل إحراق المرضى في الشوارع. في الحضارتين اليونانية والرومانية، كانت السلوكيات غير السوية تُفسَّر بتفسيرات ميتافيزيقية. وفي القرن الخامس قبل الميلاد، حاول أبقراط (Hipocrates) معالجة الأمراض العقلية بأساليب طبية. خلال العصور الوسطى في أوروبا، كان المجنون يُعذب بزعم تخليصه من الأرواح الشريرة. ومع تأثر أوروبا بالحضارة الإسلامية، تغيَّرت نظرة المجتمعات الأوروبية تجاه المرضى

---

[٦] نفس المرجع.

العقليين، حيث أُنشئت مستشفيات لعلاجهم في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين. ومع حلول القرن التاسع عشر، بدأ تأسيس علم الطب العقلي تدريجيًا، حيث كان الطبيب الفرنسي بينال (Pinel) من الرواد الذين عاملوا المجنون كإنسان يستحق الرعاية. برز دور اللاشعور في تفسير الاضطرابات النفسية في القرن التاسع عشر، وساهم كل من شاركو (Charcot) وفرويد (Freud) في تطوير العلاج النفسي. أما في الجزائر، فقد بدأ الاهتمام بعلم النفس المرضي في القرن العشرين، خاصةً بفضل إسهامات الطبيب الفرنسي فرانز فانون (Frantz Fanon) في الخمسينيات والستينيات، الذي يُعدُّ أب الطب العقلي في الجزائر. لقد كان لفانون دور بارز في العناية بفئة المرضى العقليين والنفسيين الذين عانوا من التهميش والإقصاء خلال الحقبة الكولونيالية.[٧]

يجادل فانون بأن مصطلح الكولونيالية هو بناء عاطفي خلقه المستعمرون لمصلحتهم الخاصة، مستخدمين المصطلح لتحويل القضية من الوطني إلى النفسي. لا يرى فانون أن الكولونيالية ليس مجرد فعل سياسي أو اقتصادي فحسب، بل هو أيضاً بناء عاطفي خلقه المستعمر. على هذا النحو، للاستعمار تأثير عميق على

[٧] سريدي أميرة " ,نشأة و تطور علم النفس المرضي ,"الملتقى الوطني: علم النفس المرضي في الجزائر، تاريخ، حاضر و مستقبل ٢٠١٨, نوفمبر، ٢٠١٨.

نفسية الفرد. علاوة على ذلك، يجادل فانون بأن الاستعمار هو شكل من أشكال إنكار إنسانية المستعمَرين، واختزالهم إلى مجرد أشياء.

إن الحركة الكولونيالية الأوروبية التي استعبدت شعوب الأرض كانت تُقدِّم نفسها على أنها موجة حضارية جديدة تهدف إلى جلب الحداثة والتطور إلى مناطق العالم التي توصف بالتخلف. لكنها في حقيقتها كانت نتيجة حتمية لحالة نفسية نشأت مع الاكتشافات العلمية الكبرى والثورة الصناعية، مما أوجد لدى الإنسان الأوروبي شعورًا بالتفوق والاستعلاء، دفعه إلى النظر إلى الآخر نظرة دونية واحتقار.[٨]

أحد الكتّاب الذي اشتهر بأدب المقاومة هو غسان كنفاني. غسان كنفاني، الكاتب الفلسطيني المعروف والشهيد، ارتبط منذ البداية ارتباطًا وثيقًا بالنضال الفلسطيني وبمفاهيم مثل الاستعمار، واللجوء، والمعاناة. عاش مرارة الهزيمة مع الشعب الفلسطيني، وأصبح من أبرز رواد ومفكري أدب المقاومة. في عام ١٩٦٢، كتب روايته الأولى "رجال في الشمس"، التي عُرف من خلالها كرائد في مجال الحداثة في الأدب العربي. وفي العام نفسه، حصل على المركز الأول في فئة القصة القصيرة

[٨] كمال رمضاني و عبد المجيد عمراني, "سيكولوجيا الاستعمار من منظور فرانز فانون," مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا, ٥ (يناير ٢٠٢٢): ٨٢-٤٦٨.

بين ٢٥٠ كاتبًا عربيًا، وفاز بجائزة أفضل رواية طويلة نُشرت خلال ذلك العام عن روايته "ما تبقى لكم".[٩]

أصبحت الحياة في الأراضي المحتلة أشد صعوبة خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين، وتفاقمت الأوضاع بعد الحرب العالمية الثانية مع تصاعد التوترات الإقليمية. في تلك الفترة، عاش الكاتب الشهير غسان كنفاني وشهد معاناة الشعب الفلسطيني بشكل يومي، حيث كان يرى أو يسمع عن وفاة أحد أفراد عائلته. ظل غسان يعاني من التوتر والخوف الذي خلفته أجواء الموت المستمرة. تُلاحظ الباحثة في روايات كنفاني أن معظم الشخصيات هم من الأطفال والمراهقين، نظرًا للطابع الواقعي الذي يميز كتاباته. ويمكن بوضوح رؤية آثار تلك المخاوف الناتجة عن الحرب والاحتلال في أعماله. كانت هذه المخاوف تتراوح بين مخاوف بسيطة وأساسية، مثل الخوف من الجوع، ومخاوف أكثر تعقيدًا، مثل الخوف من التشرد، النفي، بل وحتى الموت.[١٠]

حاول هذا الروائي في أعماله السردية أن يحافظ على الهوية الفلسطينية كيانًا مستقلًا ومتمايزًا عن الآخر الإسرائيلي، لأنه يرفض التهجين والذوبان. لذلك

---

[٩] محمد حسين كاركر, مجيد بهره ورو محمود حيدري, "الصدمة الجامعية ل(الخوف من فقدان الوطن والتهجير) في أعمال غسان كنفاني," مجلة الكلية الإسلامية الجامعة, ١, ٦٦ (٢٠٢٢): ٣٨-٤٢٥.

[١٠] نفس المرجع.

سعى إلى أن تعود الهوية في ظل الظروف الصعبة إلى ذاتها، مستحضرةً مخزونها الثقافي والحضاري، محللةً ماضيها وواقعها، ومستشرفةً مستقبلها.[١١]

رواية "ما تبقى لكم" للكاتب غسان كنفاني، التي صدرت طبعتها الأولى عام ١٩٦٦م، هو انتماؤها إلى أدب ما بعد الكولونيالية. تُعد هذه الرواية من أبرز الأجناس الأدبية التي تعبر عن القضايا الكولونيالية، لما تحويه من أحداث متصلة بتجربة الكولونيالية وتبعاته. الرواية لا تنقسم إلى أبواب أو فصول أو عناوين، بل تأتي كنص روائي متكامل دون فواصل أو أقسام. وينطبق هذا الأسلوب على وصف نسيج أدب ما بعد الكولونيالية، الذي يُشار إليه بأنه: "نسيج متماسك كثيف الخيوط."[١٢]

السياق الخارجي المرتبط بأدب ما بعد الكولونيالية، الذي تنتمي إليه هذه الرواية، فهو تجربة النزوح الفلسطيني عام ١٩٤٨. تبدأ الرواية في مدينة يافا، ثم تنتقل الأحداث إلى غزة بعد احتلال يافا. تكشف رواية "ما تبقى لكم "عن استمرارية التجربة الكولونيالية ونتائجها المدمرة، حيث ترتبط مشاهد الاستعمار في الرواية بالعنف والدماء والقتل واللاعقلانية. تشكل هذه الرواية منعطفًا حادًا يعكس تأثير

---

[١١] مازية حاج, "الهوية والسرد الآخر في رواية غيان كنفاني" (جامعة محمد خيضر بسكرة, ٢٠١٧).

[١٢] عمر عبدالله العنبر, "منهج ما بعد الاستعمار بين النظرية والتطبيق رواية ما تبقي لكم أنموذجا," مجلة المشكلة للعلوم الإنسانية والإجتماعية, ٣,١ (٢٠٢٣).

التجربة الكولونيالية تأثيرًا عميقًا وغير محدود على أحداثها وشخصياتها. الهموم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تتجلى في الشخصيتان الرئيسية للرواية (حامد و مريم) هي انعكاس مباشر للتجربة القاسية والمؤلمة لما بعد الكولونيالية.[١٣]

اختارت الباحثة عنوان الرواية "ما تبقى لكم" للكاتب غسان كنفاني لأن الرواية تركز على تصوير الصراعات الداخلية والقضايا النفسية التي تؤثر على سلوك شخصياتها. هذه الصراعات النفسية والقضايا الداخلية يمكن ربطها بالسياق الكولونيالية الذي تعانيه الشخصيات. بالإضافة إلى ذلك، وبسبب استمرار قضية الإبادة الجماعية للشعب الفلسطيني حتى يومنا الآن، ترى الباحثة أن من واجبها كأكاديمية أن تساهم في تسليط الضوء على هذه القضية العالمية من خلال دراسة وتحليل الأعمال الأدبية الفلسطينية. يهدف هذا التحليل إلى فهم تجارب الكولونيالية التي تواجهها الشخصيات في السرد الأدبي بوصفها انعكاسًا للتجارب الكولونيالية الواقعية.

بناءً على خلفية البحث السابقة، تركز هذا البحث على تأثيرات الاستعمار النفسية الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني في رواية "ما تبقى لكم" لغسان كنفاني. وتهدف هذه الدراسة إلى معرفة تأثير الاستعمار على الحالة النفسية للشخصيات في هذه الرواية وتصوير ذلك في القصة. حتى الآن، هناك العديد من الدراسات التي

---

[١٣] نفس المرجع.

تناولت أعمال غسان كنفاني، لكن الدراسات التي تركز على رواية "ما تبقى لكم" ما زالت قليلة نسبيًا. ركزت دراسة Coffin على تصوير كنفاني لقوة التحول الناتجة عن العمل الجماعي ودور المجتمع في النضال من أجل التحرر في ثلاث من أعماله، إحداها هي رواية "ما تبقى لكم". فيما يتعلق برواية "ما تبقى لكم"، قامت الباحثة بتحليل وجهات النظر المتعلقة بالنوع الاجتماعي في سياق الكفاح المسلح ودور الشخصيات النسائية[١٤]. أما دراسة خضر حول حالة المجتمع في رواية "ما تبقى لكم" فقد ركزت على تمثيل ضحايا الاستعمار من خلال مقارنة الرواية بأعمال أخرى.[١٥] بينما تناولت دراسة دانية مريان عن رواية "ما تبقى لكم" كيفية تصوير الشخصيات فيها ليس فقط كضحايا للاستعمار، بل أيضًا كفاعلين في صنع التاريخ[١٦]. إلى جانب الدراسات الثلاث المذكورة، هناك دراسة أخرى أجريت على رواية "ما تبقى لكم" وهي دراسة عمر عبد الله التي تناولت تأثير الاستعمار على جميع جوانب حياة الشعوب المستعمَرة[١٧]. تناولت الدراسات السابقة رواية "ما تبقى لكم" من جوانب مختلفة مثل جانب المقاومة، وتأثير الاستعمار على حياة المستعمَرين، وتمثيل الضحية، والجوانب المتعلقة بالنوع الاجتماعي.

من خلال مراجعة الدراسات السابقة، تبين أن النقص في الأبحاث المتعلقة برواية "ما تبقى لكم" للكاتب غسان كنفاني يتمثل في عدم تناولها بشكل خاص تأثيرات الاستعمار على الحالة النفسية التي تم تصويرها في القصة. لذلك، يأتي هذا البحث لسد هذا النقص في الأبحاث السابقة. يعدّ هذا البحث دراسة أدبية متعددة

---

[14] Nancy Coffin, "Engendering Resistance in the Work of Ghassan Kanafani: All That's Left to You, Of Men and Guns," The Arab Studies Journal 4, no. 2 (1996): 98–118.
[15] Sally Khader, "Collective Victimisation: A Study of Resistance for a Humanist Future in Ghassan Kanafani's All That's Left to You: A Novella and Other Short Stories and Nadine Gordimer's Jump and Other Stories," Journal of English Literayure and Cultural Studies 3 (2022): 29–37.
[16] Dania Meryan, "The Body as a Site for Becoming in Ghassan Kanafani's All That's Left to You," An International Peer-Reviewed Journal 21 (2016).

[١٧] العنبر, نفس المكان.

التخصصات، حيث يجمع بين علم النفس والدراسات ما بعد الكولونيالية. ولذلك، يسعى هذا البحث إلى تحليل تأثيرات الاستعمار النفسيية على شخصيات الرواية في هذه الرواية، باستخدام نظرية سيكولوجيا الاستعمار لفرانتز فانون. تهدف الدراسة إلى تحليل الأثر الاستعمار على الحالة النفسية للشخصيات الرئيسية في الرواية "ما تبقى لكم."

ب. تركيز البحث وفرعيته

استنادًا إلى الخلفية البحث، تركيز هذا البحث هو تأثير الاستعمار على الحالة النفسية للشخصيات الرئيسية وهي حامد و مريم في رواية "ما تبقى لكم" للكاتب غسان كنفاني. أما فرعيته وهي:

١. أنواع التأثيرات النفسية التي عانت منها الشخصيات الرئيسية نتيجة الاستعمار في رواية "ما تبقى لكم" لغسان كنفاني.
٢. المقاومة النفسية من قبل الشخصيات الرئيسية في التعامل مع تأثير الاستعمار.

ج. تنظيم المشكلة وأسئلة البحث

اعتمادا على تركيز البحث وفرعيته تنظم الباحثة على أسئلة البحث, هي:

١. ما هي أنواع التأثيرات النفسية التي تعرضت لها الشخصيات الرئيسية نتيجة الاستعمار في رواية "ما تبقى لكم" لغسان كنفاني؟

٢. ما هي المقاومة النفسية التي تقوم بها الشخصيات الرئيسية في رواية "ما تبقى لكم" لغسان كنفاني في مواجهة الاستعمار؟

د. أهداف البحث

من أهداف هذا البحث هي:

١. لوصف أنواع التأثيرات النفسية التي تعرضت لها الشخصيات الرئيسية نتيجة الاستعمار في رواية "ما تبقى لكم" للكاتب غسان كنفاني.
٢. لوصف المقاومة النفسية التي تقوم بها الشخصيات الرئيسية في مواجهة تأثير الاستعمار.

هـ. أهمية البحث

هذا البحث مهمّ أن يُجرى لأنّ ممارسة الاستعمار قد تركت أثراً عميقاً على نفسية الأفراد والمجتمعات التي كانت ضحيّة الاحتلال.

من المتوقع أن يقدم هذا البحث الفوائد التي يمكن استخلاصها، ومنها:

١. يقدم هذا البحث فهماً عميقاً حول الأدب العربي الذي يركز على تأثير الاستعمار، وهو موضوع غالباً ما يظهر في الأعمال الأدبية العربية الحديثة. وبذلك يمكن أن يثري المواد التعليمية في الفصل لفهم أفضل للجوانب الثقافية والتاريخية والاجتماعية التي تصورها الأعمال الأدبية العربية.
٢. يمكن استخدام هذا البحث كنموذج لكيفية تطبيق التحليل النفسي في دراسة الأدب، مما يمكّن الطلاب من تطوير قدرتهم على تحليل الأعمال الأدبية من زوايا مختلفة، إحداها زاوية التحليل النفسي.

٣. يمكن لهذا البحث أن يشكل حافزاً للأكاديميين في مجال اللغة العربية لإجراء أبحاث تتعلق بالمواضيع الاجتماعية والنفسية والتاريخية في الأدب العربي الآخر. وهذا قد يزيد من الفهم الشامل للأدب العربي ويجعل الأدب العربي مصدراً للمعرفة النقدية في السياق العالمي.